رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي والمغاربي

يشكّل رثاء المدن والممالك أحد أبرز الأغراض الشعرية التي ازدهرت في الغرب الإسلامي، وبخاصة في الأندلس والمغرب، خلال فترات الانكسار السياسي والعسكري. فقد شكّل سقوط الحواضر الإسلامية حدثاً مأساوياً هزّ الوجدان الجمعي، فانصبّ الشعراء على تصوير الخراب، واستحضار مجد الماضي، والبكاء على ضياع الأهل والديار، وطرح تساؤلات مؤلمة حول مصير الحضارة الإسلامية في الغرب.

هذا الغرض في جوهره أدبي – تاريخي – حضاري، يجمع بين العاطفة والوعي السياسي والعبر الأخلاقية.

أولاً: الإطار التاريخي لرثاء المدن في الغرب الإسلامي

1– الأندلس وسياق الانهيار:

– تعاقُب الطوائف وتفتتها بعد سقوط الدولة الأموية الأندلسية (القرن 11م).
– الحروب الصليبية الإيبيرية (الاسترداد).

– سقوط طليطلة 1085م، ثم قرطبة وإشبيلية، وصولاً إلى سقوط غرناطة 1492م.

كانت هذه النكبات مصدر إلهام لشعراء رأوا بأعينهم خراب المدن وتهجير المسلمين، فخرجت نصوصهم مليئة بالألم والاحتجاج.

2– بلاد المغرب وسياق الصدامات السياسية:

– الصراع بين المرابطين والموحدين والحفصيين والزيانيين والمرينيين.

- الحروب الداخلية ومواجهة الحملات الأوروبية على السواحل.

- سقوط مدن مثل سبتة 1415م والجزائر ووهران في فترات متعاقبة.

أنتج هذا واقعاً مشابهاً للأندلس: انكسار، حصار، هجرة، مما ولّد شعراً نُواحياً يشبه الرثاء الأندلسي.

ثانياً: أسباب ازدهار هذا الغرض الشعري

- الصدمة النفسية والحضارية: كان السقوط يُعدّ ضياعاً لقرون من الازدهار العلمي والعمراني.

- الارتباط العميق بالمدينة: طابع الحضارة الأندلسية حضري بامتياز؛ المدن مراكز العلم والأدب.

- تداخل المصير الشخصي بالمصير الجماعي: الشاعر يفقد وطنه وأهله وذكرياته.

- طبيعة الشعر الأندلسي: رقيق، حسّي، قريب من التصوير والحنين.

- وظيفة الشعر الاجتماعية والسياسية: الشعر وسيلة للتأريخ والاحتجاج والدعوة للجهاد.

ثالثاً: السمات الفنية لرثاء المدن والممالك

1- الصورة الشعرية: يصور فيها الشاعر الخراب والفراغ، كما يبرز التناقض بين الماضي المجيد والحاضر المنكسر.

2- النبرة الوجدانية: يظهر فيها الشاعر الحزن والبكاء والحنين، ويبين شعوره بالظلم والتخاذل.

3- الأسلوب الخطابي: نجد الشاعر يوظف النداءات، والأسئلة، وصرخات الاحتجاج، كما يوجه اللوم للأمراء أو الزمن أو النفس.

4- توظيف التاريخ والرموز: كاستحضار بطولات الماضي. **أو** المقارنة بين الخلف والسلف.

5- النزعة الأخلاقية: وتتمثل في الدعوة إلى الوحدة والجهاد، وأخذ العبرة من تقلّبات الدنيا والحياة.

رابعاً: نماذج من رثاء المدن في الشعر الأندلسي

- أبو البقاء الرُّندي (ت 684هـ):

– أشهر نص في تاريخ الغرض قصيدته "رثاء الأندلس" بعد ضياع قواعد كبرى كقرطبة وإشبيلية، منها قوله:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتها دُولٌ مَن سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ
حتّى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ

نجد في هذه القصيدة ثنائية الماضي والحاضر، والخطاب التحريضي الموجّه للعرب والمسلمين. كما نجد فيها تصوير بؤس الواقع من سبي النساء، وأسر الرجال، وتيتيم الأطفال وخراب المساجد وغير ذلك من مظاهر الخراب والدمار.

- ابن العَبّار أو ابن الأبّار القضاعي البلنسي(ت 658هـ):

من شعره قصيدته "وا حَزَناهُ على الإسلام!" بعد سقوط بلنسية، يقول فيها بأسلوب خطابي وانفعال شديد مخاطبا ملك تونس عمر الحفصي طالبا منه النجدة سنة 635هـ:

أدرك بخيلك خيلَ الله يا عُمَرُ وانجد فإنّ عدوّ الله قد قَهَرُوا

كيــف ارتضــيتَ ذلــيلاً أن يقــالَ أُخِــذَتْ بلنســيةُ! والقلــبُ منــه لــم يَفِــرُ

في البيت الأول يطلب من عمر نجدة جيش المسلمين الذي هزمه جيش الإفرنجة واستولى على البلاد والعباد، وفي البيت الثاني يلوم الملك، إذ كيف يرضى ملك مسلم أن تُؤخذ مدينة إسلامية عظيمة، دون ان يتحرك قلبه للنجدة والإغاثة، وفي هذا اللوم الشديد تحريك للهمة واستثارة للغيرة الدينية والسياسية.

خامساً: رثاء المدن في الأدب المغاربي

– **السياق المغاربي:** ويتجلى ذلك في سقوط الثغور أمام الأوروبيين، **و**صراعات الممالك، **و**موجات الهجرة من الأندلس إلى المغرب. ومن شعراء المغرب العربي **عبد الرحمن المجدوب،** الذي يقول شعراً شفوياً يندب فيه الخراب ومصائب الزمن، فيقول:

واكُــرمْ زمــان كــان فيــهْ الأمــانْ واليــومْ صــبحْنا فــي زمــانْ الهــوانْ

كما نجد **شعراء البلاطات المرينية والزيانية والحفصية،** قد رثوا سبتة بعد سقوطها، ورثوا بجاية وتونس في فترات الاضطراب.

2– حضور القضية الأندلسية في المغرب:

كان المغاربة يرثون الأندلس باعتبارها امتداداً لهم، فامتزج الرثاء السياسي بالرثاء الحضاري، وكثرت قصائد الحنين إلى الشمال المفقود.

سادساً: الأبعاد الحضارية لرثاء المدن

– تأريخ شعري للسقوط: إذ ما نجده في الشعر لا يقل قيمة عن المصادر التاريخية.

- صورة المجتمع المهزوم: خوف، هجرة، فقدان.

- إدانة أسباب الانهيار: التفرق، الصراع، تخلّف الجهاد.

- البعد الإنساني: الشعر يتجاوز قوميته ليعبّر عن فقدان حضارة بكاملها.

- الأثر في الأدب العربي الحديث: تُستعاد صور رثاء الأندلس في شعر النكبة، فلسطين، الموصل، حلب، بغداد.

خاتمة:

رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي والمغاربي ليس مجرد تأوّه على الأطلال، بل هو مرآة لوجدان حضارة كاملة. إنه فن تتشابك فيه العواطف والتجربة التاريخية والرؤية الأخلاقية. وحين نقرأ هذه النصوص اليوم فإننا نستعيد درساً حضارياً قاسياً حول أثر التفرّق والضعف، مقابل قوة التماسك والوحدة.

مراجع مقترحة للطلاب:

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ.

- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

- شوقي ضيف: الأدب الأندلسي.

- عبد الله كنون: النبوغ المغربي.

- دراسات حديثة حول رثاء المدن في النقد الأدبي.